(٥٧)

القَرِيبُ جَلَّ جَلَالُهُ

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة: ١٨٦].

سؤال تولى الله جَلَّ وَعَلَا الرد عنه بنفسه، في آية تسكب في كل قلب مؤمن النداوة الحلوة، والود المؤنس، والرضا المطمئن، والثقة الكافية، واليقين الشافي.

وفي ظل هذا الأنس والقرب المودود؛ نتعرف على اسم الله: (القريب جَلَّ وَعَلَا):

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾[سبأ:٥٠].

اسم حبيب إلى النفوس، غني بالمعاني الرائعة والدلالات الكثيرة..

لفظه يشف عن معناه كما يشف الكأس الصافي عما فيه من الماء الزلال.

فربنا جَلَّ وَعَلَا قريب من عباده، مستو على عرشه؛ الذي هو فوق خلقه، عليم

بالسرائر وما تكنه الضمائر، ومعيته لكل أحد.

❐ وقربه من خلقه نوعان:

أولاً: قرب عام، وهو: قربه ﷻ من كل أحد بعلمه ومراقبته ومشاهدته وإحاطته بجميع الأشياء، وهو فوق كل المخلوقات، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

وهذه المعية العامة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾[ق:١٦].

ثانيًا: قرب خاص، وهو: قربه ﷻ من عابديه وسائليه ومحبيه، وهو قرب يقتضي: المحبة والنصرة، والتأييد في الحركات والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول والإثابة للعابدين.

وهو قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره؛ من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسديده: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ١٨٦].

وَهُوَ القَرِيبُ وَقُرْبُهُ المُخْتَصُّ بِـ ... ـالدَّاعِي وَعِبادِهِ عَلَى الإِيمَانِ

صح عنه ﷺ أنه قال: «وَالَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ»[أخرجه مسلم].

يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

❐ في كنف الله..

والله ﷻ قريب من أوليائه، حافظ عباده، يكلؤهم برعايته، يحوطهم

بعنايته، ينزل عليهم غيث الرحمة، لا يدعهم طرفة عين، لا يكلهم إلى أنفسهم، ولا يسلط عليهم أعداءهم، ولا يجعل للشيطان عليهم سبيلاً.

أتوا بثمن المعية الخاصة؛ فكان: القرب، والنصر، والتأييد، والحفظ، ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا ﴾[المائدة:١٢].

اطمأنوا إلى ربهم، وحسن ظنهم به ﷻ؛ فكان لهم في كل حين..

فهذا نوح عليه السلام بعد الألف إلا خمسين عامًا من الدعوة والبلاء والعناء دعا ربه؛ فلباه، ونجاه، وأهلك خصومه.

وهذا إبراهيم عليه السلام استجار بربه؛ فأنجاه من النار.

ونجى يونس بن متى عليه السلام من الكرب العظيم، ورد يوسف إلى يعقوب وجمع شملهم، وألف بينه وبين إخوته، ورد بصر يعقوب إليه.

ورسولنا ﷺ تعصف به مواقف تشيب منها الرؤوس، وتبلغ فيها القلوب الحناجر، وظُن بالله الظنون من بعض أصحابه، فيتضرع إلى مولاه؛ فينجز الله ﷻ الوعد، ويحقق المراد، ويعلي كلمة الحق..

فالله ﷻ قريب من جميع خلقه المؤمنين، يراهم ويحميهم.

تأتي امرأة تجادل في زوجها رسول الله ﷺ، وعائشة رضي الله عنها في طرف البيت تقول أنها تسمع كلمةً وتغيب عنها كلمة، وبعد ذلك الجدل ينزل جبريل على الحبيب محمد ﷺ بقوله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي

زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾[المجادلة: ١]،

فسبحان الذي وسع سمعه الأصوات كلها!

❐ إنه قريب:

لا ترفع صوتك بالدعاء! فهو قريب يسمعك..

سمع ﷺ الصحابة ﷺ وهم يدعون ربهم بأصوات جهيرة مرتفعة؛ فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوْا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُوْنَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُوْنَ سَمِيعًا بَصِيرًا»[أخرجه البخاري ومسلم].

والله مطلع على ما في نفسك وعلى خواطرك، تدعوه في قلبك فيستجيب.. إِنَّهُ القَرِيبُ ﷻ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾[مريم: ٣].

تذكره في نفسك فيسمعك ويذكرك؛ فإنه القريب ﷻ.

وفي الحديث القدسي المتفق عليه: «إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٌ مِنْهُمْ».

وما من إنسان إلا وله منحة من الله القريب ﷻ؛ في تفريج هم أو تنفيس كرب، أو دفع ضرر، أو منع خطر، أو نيل محبوب، أو حصول مطلوب...

فباب الله القريب مفتوح، وعطاؤه ممنوح، وكرمه عظيم، وجوده كبير؛ فكم من حاجة قضيت، ومن دعوة قبلت، ومن بركة نزلت، ورحمة غشيت؟!

ثوب الافتقار..

فإذا علمت بقرب الله ﷻ منك، وأنه مطلع على سريرتك؛ يسمع دعاءك ويرى مكانك ويعلم ما في قلبك؛ فكن من المحسنين: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦].

وتقرب إليه؛ فإن تقربت منه شبراً تقرب إليك ذراعًا، ففي الحديث القدسي: «وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ» [أخرجه البخاري ومسلم –واللفظ له–].

والتقرب إليه يكون بالفرائض قبل النوافل؛ «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ» [أخرجه البخاري].

وكلما كمل العبد في مراتب العبودية كان أقرب إلى الله ﷻ، وكلما تذلل لله وانطرح بين يديه ومرغ أنفه وعفر وجهه لربه ومحبوبه؛ زاد قربه من ربه، وارتفع شأنه، صح عنه ﷺ أنه قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» [أخرجه مسلم].

فالسجود فيه: أعظم دلائل الإجلال، وأقصى درجات العبودية، وأجل مظاهر التذلل، وأجمل رسائل الحب، وأعذب مناظر الخشوع، وأفضل أثواب الافتقار..

وبقدر سجودك لله ﷻ، تكون رفعتك عند الله، جاء عنه ﷺ أنه قال: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلهِ، فَإِنَّكَ لاَ تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلاَّ رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً» [أخرجه مسلم].

وهنا تحصل على النعيم الدائم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١١]، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين:٢٨].

فهنيئًا لك بربك وبإقبالك عليه!

حَتَّى وَإِنْ بَدَتِ السَّمَاءُ بَعِيدَةً ... إِنَّ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاءِ قَرِيبُ

فَارْفَعْ يَدَيْكَ إِلَى الإِلَهِ مُنَاجِيًا ... إِنَّ الجُرُوحَ مَعَ الدُّعَاءِ تَطِيبُ

مَا ضَرَّنَا بُعْدَ السَّمَاءِ وَإِنْ عَلَتْ ... مَا دُمْتَ يَا رَبَّ السَّمَاءِ قَرِيبُ

اللهم قلت وقولك الحق: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

اللهم يا قريب يا مجيب!! أجب دعواتنا، وارحم ضعفنا، وفرج همنا، وأحسن خاتمتنا في الأمور كلها، وآجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين؛ يا سميع الدعاء!